الرافدين

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

العدد السابع – السنة الثانية 1990

الفوانيس

موسوعة فصلية مصورة تعنى بالاثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academy

أكاديمية الكوفة

هولنده

Kufa Academy

الامام علي الشاعر الحكيم

بقلم علي الجندي*

عليٌّ الشاعر : لم تكن قريش ـ على ميراثها من البلاغة ، ومنزلتها من البيان ـ تعرف بالشعر كما تعرف به القبائل الأخرى كبَكْر وتغلب من ربيعة ، وتميم من مضر مثلاً ، حتى إذا نجم منها عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، سلمت لها العرب حقها في الشعر .

ولكن ـ مع حظّ قريش القليل في الشعر ـ نجد أنّ بني هاشم استأثروا بالنصيب الأوفى منه فقد أورد الرواة شعراً لأبي طالب وعبد الله وحمزة والعباس أبناء عبد المطلب ، كما أوردوا شعراً لسفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن العباس ، وجعفر بن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمة الزهراء ، بل إنّ ابن رشيق يقول : ليس من بني عبد المطلب رجالاً ونساءً من لم يقل الشعر حاشا النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم .

أما عليٌّ ـ عليه السلام ـ فلم يشك أحد من الرواة في أنه قال شعراً ، وإنّما الخلاف في القدر المنسوب إليه ، فمنهم من عزا إليه ديواناً كاملا يبلغ نحو ألف وأربعمائة بيت ، ومنهم من يقطع بأنه لم يقل غير بيتين ، ومنهم من غالى فقرّر أنه لم يقل غير بيت واحد ! .

وليس المهمّ عندنا كثرة ما قاله «الإمام» أو قلتّه ، فكثير من الشعراء خلدوا بقصيدة واحدة أو مقطوعة ، ولكن المهم ثبوت صفة الشاعرية له ، ولانريد إثباتها مما نسب اليه من هذه الأشعار؛ فإن كثرة الاختلاف فيها يجعلها سنداً ضعيفاً، ولكن يستقيم لنا إثباتها من هذه الحادثة

---

* المرحوم الاستاذ علي السيد الجندي (١٨٩٨ ـ ١٩٧٣م) من كبار اعلام مصر ، كان عميداً لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعضواً في عدد من الجمعيات واللجان الدينية والأدبية ، انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٩ ، وتنوع نشاطه العلمي والفكري بين الابداع والتأليف ، وقد ترك وراء دواوين شعر ثلاثة هي : أغاريد السحر ـ اغاريد الاصيل ـ ترنيم الليل ـ وفي مجالات الدراسات الأدبية : فن الاسجاع (جزآن) ، فن التشبيه (ثلاثة اجزاء) ، البلاغة الفنية ، ومن كتبه الاخرى : سياسة النساء ، وحديقة الانشاء ، واشترك في مؤلفات اخرى منها : سجع الحمام في حكم الامام (مختارات من حكم الامام علي عليه السلام) طبع في مصر .

التاريخية ، فقد روى مؤرّخوا السيرة : أن ثلاثة رهط من قريش وهم عبد الله بن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص كانوا يهجون الرسول ، فقال قائل لعلي : أهج عنا القوم الذين قد هجونا . فقال علي : إن أذن لي رسول الله . فقال رجل يا رسول الله . إيذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا ، فقال الرسول : ليس هناك ، أو ليس عنده ذلك . .

ثم ندب إلى هجوهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

وفي هذه الحادثة ما يدل على أن علياً كان معروفاً بقول الشعر ، منظوراً إليه فيه ، ولا يضع منه أنه لم يبلغ فيه منزلة الفحولة من شعراء المخضرمين أمثال حسان وغيره ، فلم تكن الأسباب مهيأة لتجعل منه شاعراً محترفاً للشعر مخلصاً له .

ولا تنقص علياً العواملُ التي ترشحه لقول الشعر ، بل تخلق منه شاعراً عظيما ، فمنها عصر الوراثة الذي أشرنا إليه ، والوراثة في الشعر مسلم بها ، وقد ظهر أثرها في آل زهير بن أبي سلمى ، وجرير وغيرهما .

ومنها أن عليّا كان قويّ الطبع ، رقيق الشعور ، رهيف العاطفة ، متوهج النفس محتدم الوجدان ، عميق التأثر ، شديد الانفعال ، حاد المزاج .

ومنها أنه كان واسع الخيال ، بديع التصوير ، رائع التمثيل ، ساحر البيان ، يغلب على نثره الإيقاع والرنين والتنغيم ، والموسيقية الشاجية ، والسجع الأنيق حتى يبدو أحياناً كأنه شعر منثور .

هذه الصفات تجعل علياً شاعراً مرموقاً بالقوة ـ إن لم يكن شاعراً بالفعل ، وقد كان شاعراً فعلا ـ ولكن هناك معوّقات وقفت به دون ما كان مقدوراً له أن يبلغه ، من منزلة شعرية ، وقعدت به أن يقول شعراً كثيراً ، فمن ذلك : أن قرابته القريبة من الرسول ونشأته في حجره ، وزواجه بابنته ، ولصوقه به جعله بمنزلة الوارث لعلومه ، الأمين على شرعه ، الحفيظ على رسالته ، المتخلّق بأخلاقه ، المتحقق بصفاته ، وقد تمّ ذلك لعليّ على أحسن وجه وأوسعه وأفضله ، فكان سيد بن هاشم ـ غير مدافع ـ بعد ابن عمه ـ صلوات الله عليه ـ كما كان أعلم الصحابة وأفقههم وأقضاهم وأنفذهم بصيرة في الدين ، وأدقهم فتيا ، وألقنهم حجة ، وأهداهم إلى صواب ، وحسبنا في ذلك قول عمر ـ رضي الله عنه ـ لولا علي لهلك عمر . وقوله : لا يفتين أحد في المسجد وعلي حاضر . وقوله : لا بقيتُ لمعضلة ليس لها أبو الحسن .

هذا إلى ما عرف به من الزهد والورع ولزوم الحق ، وقول الصدق ، وتحرّي العدل ، والعزوف عن زهرة الدنيا ونعيمها ، حتى إنه لم يلبس في أيامه ثوباً جديداً ، ولا اقتنى ضيعة ولا ريعا ، وإن أردت المزيد من ذلك فارجع إلى ما وصفه به ابن عباس ، وضرار الصدائي ، ونوفل البكالي ، والحسن البصريّ ، فإنك واجد رجلاً قلّ نظيره أو أمّة في رجل !!

مثل هذا الإمام في قرابته وسابقته ، ومثل هذا الإمام في علمه وفضله ، ومثل هذا الإمام في ورعه ونسكه ، ومثل هذا الإمام في شرفه وكماله وجلاله ، محال أن يستقيد لشياطين الشعر ، ويملكها هواه ، ويمتري منها الوحي والإلهام ، فهو إن قال الشعر ، فإنما يقوله فلتات في الزهد والحماسة والابتهال والحكمة والشكوى حينما يتسع له وقته وترتاض شاعريته كما ينفث المصدور أحياناً .

وأكبر الظنّ أن علياً لو لم يكن علياً النابت في روض النبوة ، الناشىء طفلا في عبادة الله ، علياً ابن عم الرسول ، وزوج الزهراء البتول ، العالم العامل الصوفيّ الخاشع المخبت .

أو كان من رجال الجاهلية الأولى أو الأخيرة أو ممن نشئوا في العهد الأمويّ أو العباسيّ ـ لكان شاعراً ممتازاً مشاراً إليه بالبنان بين شعراء النمط الأول .

ولكنّ الله أراد له الخير ، وأراد لأمته الخير به ، فمهّد له النهج الأمثل ، ووفقه إلى ما هو أشبه به وأحجى وأفضل ، وكلّ ميسر لما خُلق له ، فكان ـ كرّم الله وجهه ـ كما قال الشعبي : مثل عليّ في هذه الأمّة مثل المسيح بن مريم في بني إسرائيل !. وكما قال الحسن البصري : . . سهماً صائباً من مرامي الله على أعداء الله !. . ربّاني هذه الأمّة وذا فضلها وشرفها . . لم يكن بالسروقة لمال الله ، ولا بالنئومة في أمر الله !. ولا بالملولة لحقّ الله !. أعطى القرآن عزائمه وعلم ما فيه وما عليه حتى قبضه الله إليه ! ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام مشرقة . . .

علي الحكيم : أمّا عليّ الحكيم فلا يختلف الناس فيه اختلافهم في عليّ الشاعر ، فليس هناك بعد الأنبياء من أحق بهذا الوصف من أبي الحسنين ، ولو لم يكن علياً حكيماً لوجب أن يكون حكيماً ، فجميع طرائق الحكمة مفضي إليه ، وأسبابها مجتمعة لديه !!

ما هي الحكمة ؟ . .

هي قول مسلم سائغ لدى العقول الناضجة . وهي مفرغة غالباً في قالب البيان الواضح الساحر الوجيز .

وعمادها : عمق الحنكة ، وصدق التجربة ، وكمال الطبع ، وسلامة الذوق ، وثقوب الذهن ، وحدّة القريحة ، واستقامة المنطق ، وجودة الرأي ، وغزارة المعرفة ، وسعة الأفق ، وقوّة البديهة وشدّة العارضة ، والقدرة على الموازنة ، وقوّة الانتزاع والاستنباط ، وحسن الصياغة ، ووضوح الإبانة ، وناهيك بالإمام في كل ذلك :

فقد تربّى في بيت الرسول ، وأسلم على يديه صغيراً ، فتلقى عنه ميراث العلم والحكمة ، ونهل وعلّ من ينبوع فصاحته وبلاغته ، فكان كلما قال الإمام محمد عبده ـ «عليّ ـ قوله مسحة من العلم الإلهيّ ، وفيه عبقة من الكلام النبويّ» فخرج نسج وحدة في قوة المنطق ، وبراعة الاستدلال وطلاقة اللسان ، وسحر البيان ، فعدّ أفصح العرب وأبلغهم ، وأخطبهم

بعد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويكفي في الدلالة على ذلك : كلام الأصلع : يعني علياً ـ كرّم الله وجهه . .

وإذا كانت الحكمة فناً من الإيجاز ، فقد كان عليّ ـ كما يقول قدامة بن جعفر ـ ممن برع في المعنيين من الإيجاز والإطالة ، فسلم في الايجاز من التقصير ، وفي الإطالة من الإسهاب والتكثير ، وتقدّم الناس جميعاً كتقدّمه في سائر فضائله .

وكان قويّ الخلق ، مُرّ الحفاظ ، صريحاً إلى أبعد الغايات ، باطنه كظاهره ، وسره كعلانيته ، لا يحابي ولا يداجي ولا يداهن ، ولا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يسكت عما لا يرضاه ، وإن جرّ الشرّ والضرّ وتأبى عليه تقواه إلاّ أن ينال الحقُّ كلّ الحقّ لاشيء غير الحق بوسائل هي الحقّ ! .

ومثل هذه الطبيعة القويمة المستقيمة . السوية ، الجادة الصارمة المتزمتة ، المتمسكة بناموس الخير والعدل والشرف والإباء ، من شأنها أن تلهم الحكمة ، وتوحي المثل ، وتفتق اللسان بغرر القول ونوابغ الكلم .

وكان نقي الجوهر ، وضّاء النفس ، صافي الروح ، لماح الخاطر ، يستشفّ الغيب من ستر رقيق وقد عزيت إليه نبوءات صادقة استرعت أنظار اتباعه ، فقال له رجل من كلب : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك وقال : يا أخا كلب ، ليس هو علم غيب وإنما هو تعلم من ذي علم . . وقد دلتنا التجارب على أن اكثر الناس نطقاً بالحكمة والمثل هم أولئك الرّبانيون المتألهون الروجانيون .

وقد عاش ـ رضي الله عنه ـ أيامه الأخيرة منطوياً على ألم برح وكمد متصل ! فمنذ أن قتل عثمان ـ رحمه الله ـ وأفضت إليه الخلافة بعده ، وهو في دوّامة هائجة مائجة من الأحداث لم تصف له فيه الدنيا يوماً واحدا ، فمن وقعة الجمل إلى وقعة صفين ، إلى تآمر خصومه علي وفيهم دهاة العرب ودهاقينها ، إلى تمرّد أصحابه عليه ، وخروجهم عن طاعته وقتالهم له ، حتى زهد في البقاء وتمنى لقاء ربّه ، وهو القائل في وقعة الجمل بعد أن حسا حسوة من عسل ـ لعبد الله بن جعفر : والله يا بنيّ ما حلا بصدر عمك شيء قط من أمر الدنيا ! !

نعم لم تصف له الدنيا ولم يحل له مذاقها حتى لحق بالرفيق الأعلى شهيداً على يد أشقى الآخرين ابن ملجم ـ عليه اللعنة ـ والحق أنه عليه السلام كان يمثل الإنسانية المعذبة والروحانية المرزّأة أصدق تمثيل .

ولن نجد دليلا على خسّة الدنيا وحقارتها كتنكرها له ، وصدوفها عنه ، ولن تجد برهانا على لؤم أبناء آدم وحطتهم ، كتطوّع شيطان منهم لقتل هذه النفس الزكية البريئة المبرّأة ! وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

فنحن نرى مما سلف ـ أنه فوق عوامل الوراثة والبيئة والهبة والعبقرية ـ قد تناصرت عناصر كثيرة أخرى على أن يكون ابن أبي طالب حكيماً كأحكم الحكماء ! فالأيام التي عاشها ، والناس الذين خالطهم ، والأحداث التي مارسها والغمرات التي خاضها ، والخلافات التي عاناها ، زادت من خبرته بالدنيا ومن فيها وما فيها ، وأمتدته بتجارب عمليّة وذهنيّة لا حصر لها ، كانت ثمرتها هذه الفيوض من الحكم البالغة والأمثال السائرة مما ينفع الناس في دينهم ودنياهم .

وقد يقال : إنّ الحكم المنسوبة للإمام قد بلغت من الكثرة حداً يلفت النظر ، والجواب : أن آثار الامام أيضاً تلفت النظر بكثرتها ، فالمسعودي يصرّح : بأن الذي حفظه الناس عنه من خطب في سائر مقاماته : أربعمائة ونيف وثمانون خطبة أوردها على البديهة ، وقد جمع الشريف الرضيّ جملة وافرة من خطبه وكلماته في كتابه الموسوم «بنهج البلاغة» ـ ولسنا في مجال تحقيقه ـ ومع ذلك فقد بدأ الرضيّ باب الخطب بقوله : باب المختار من كلامه الجاري مجرى الخطب . . وكلمة المختار تفيد أنّ خطب الإمام أكثر من ذلك . .

فلا غرو بعد هذا إذا كثرت حكم الإمام ، فإنها قبس من هذه الآثار الكثيرة . ومهما قيل في أنّ بعض هذه الحكم لا تصحّ عن عليّ ، لأنها وردت في غضون الأحاديث النبويّة ، أو لأنها نسبت إلى غيره من الجاهليين والإسلاميين ، أو لأنها تخالف نهجه في أسلوبه البياني والخلقيّ ، فإنه يبقى التسليم بأنّ أكثرها صحيح النسبة إليه ، وأن ما حمل عليها منها ضيع في الأعمّ الأغلب على طريقته وغرضه .

هذا ، وشهرة الإمام بالحكمة لم تتح له بعد وفاته بل كانت مستفيضة في حياته كذلك : أي قبل أن تجمع آثاره ؛ فمن وصف عدي بن حاتم له : تتفجر الحكمة من جوانبه والعلم من نواحيه .

ومن وصف ضرار الصدائي : يقول فضلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .

رحم الله ابا الحسن فهو كما قال ابن عباس فيه : لم ترَ عيني مثله ولن ترى .